

الهوية وحقائق التنوع اللغوى فى ظل العولمة

د . مصطفى أحمد عبد العليم

مدرس النحو فى كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

توطئة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

فإن موضوع الهوية يطرح نفسه هذه الأيام بإلحاح شديد على المستويين المحلى و العالمى؛ نظرا لشيوع مايسمى بالعولمة أو الكوكبية الجديدة التى ادت وستؤدى إلى هيمنة نموذج اقتصادى وثقافى وإعلامى واحد هو النموذج الغربى، بل الأمريكى على وجه الخصوص ، وهو ما يفضى بالضرورة إلى سيادة لغة من لغات الدول المهيمنة فى المعاملات التجارية والاقتصادية ، الأمر الذى يؤثر تأثيرا بالغا على الهوية القومية لسانر الشعوب و خاصة العربية منها والإسلامية :

ومن ثم رأيت أن أتناول هذا الموضوع من ناحية علاقة الهوية القومية باللغة ، وحقائق التنوع اللغوى وأسباب هذا التنوع ومظاهره ، واتجاه اللغة إلى التوحد أيضا بفعل عوامل أخرى من أهمها التواصل والتقارب ، ومحاولات بعض الدول الحفاظ على لغتها الخاصة أو إحياءها باعتبارها مقوما من أهم مقومات القومية وسعى بعض الدول الاستعمارية إلى طمس هوية الشعوب المحكومة لها عن طريق القضاء على لغاتها الخاصة، ورفض فكرة سيادة لغة واحدة على العالم كله أو حتى سيادة لغة أجنبية على لغة الشعب القومية ، وبينت بطلان فكرة اللغة العالمية (الاسبرانتو)، والتى نشأت الدعوة إليها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وربطت ذلك ببيان خطورة العولمة الحديثة وما تستتبعه من وجود عولمة لغوية مما يؤثر تأثيرا خطيرا على الهوية القومية للشعوب ، ويخالف فى الوقت نفسه حقائق التنوع اللغوى التى اقتضتها سنن الله الطبيعية ، ثم أشرت أخيرا إلى خصوصية اللغة العربية وأنها خالدة بخلود القرآن الكريم .

* * *

التنوع اللغوى حقيقة :

واختلاف اللغات حقيقة يشهد لها الحس والعقل والنقل ؛ فقد اقتضت سنة الله تعالى أن يختلف الناس فى كلامهم ولغاتهم على نحو ما يختلفون فى مناحى تفكيرهم وطباعهم وألوانهم وأجناسهم وأحوالهم الاجتماعية والثقافية والطبيعية ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (هود ١١٨ - ١١٩) وخاتمة هذه الآية تشير إلى أن الحكمة من خلق الناس هى الاختلاف ، وهو قول جماعة من المفسرين فى الآية منهم الحسن ومقاتل وعطاء (١) أى وللاختلاف خلقهم .

والحق أن الاختلاف ليس ظاهرة سلبية فى جميع الأحوال بل ينطوى على جوانب ايجابية عديدة منها : أنه يدل على عظمة قدرة الله فى الخلق وواسع تصرفه سبحانه ، وأنه يدعو إلى التنافس بين الناس وإظهار كل فرد موهبته الخاصة وقدرته المتميزة إلى غير ذلك من الحكم والأسرار .

والاختلاف كائن ليس بين البشر فحسب بل فى جميع المخلوقات فى الليل والنهار ، والزرورع والثمار ، والنباتات والأزهار ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك فى عديد من الآيات منها :

قوله تعالى : (وَمَا ذَرَأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ) (النحل ١٣) .

وقوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ) (النحل ٦٩) .

وقوله سبحانه : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَخُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) (فاطر ٢٧) واختلاف الألسنة من هذا القبيل قال سبحانه :

(وَمَذْيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) (الروم ٢٢) .

وتبين هذه الآية أن اختلاف الألسنة من آيات الله أى علامات قدرته وكماله ووحدانيته التى تحتاج إلى تأمل أصحاب العلم .

وهذه الحقيقة يقرها أيضا علماء اللغة ، فيقول العالم اللغوى فنديرس فى سياق حديثه عن تنوع اللهجات : " ويوجد من العاميات الخاصة بقدر ما يوجد من جماعات متخصصة ، والعامية الخاصة تتميز بتنوعها الذى لا يحد وأنها فى تغيير دائم تبعا للظروف والأمكنة ، فكل جماعة خاصة ، وكل هيئة من أرباب المهن لها عاميتها الخاصة ... " (٢)

مظاهر التنوع اللغوى :

ولهذا الاختلاف مظاهر متعددة فهو يتحقق على مستوى اللغات ، فيذكر علماء اللغة أن لغات العالم قد قارب عددها ثلاثة آلاف من الأسنة (٣). وفى بعض البلاد يصل عدد اللغات إلى المئات ، كما هو الحال فى الفلبين وأندونيسيا وأثيوبيا والسودان (فى الفلبين ١٦٤ لغة ، وفى أندونيسيا ٦٥٩ ، وفى أثيوبيا ١٢٠ ، وفى السودان ١٣٥) (٤).

وإلى جانب هذا التنوع فى اللغات يوجد تنوع فى اللهجات داخل اللغة الواحدة . وفى الوطن العربى المترامى الأطراف من المحيط إلى الخليج تنتوع اللغة العربية إلى لهجات عامية ، فعامية مصر تختلف عن عامية الشام ، وعامية العراق تختلف عن عامية المغرب ، بل إننا نجد هذا التنوع داخل القطر العربى الواحد ، فى لبنان مثلا على ضيق مساحته تفاوت ملحوظ بين لهجات الجنوب ولهجات الشمال ، وفى مصر تتفاوت لهجة الصعيد عن لهجة الوجه البحرى ، وتختلف لهجة الإسكندرية مثلا عن لهجة الشرقية وعن لهجة بورسعيد ، وفى سورية تختلف لهجات دمشق وحلب وحماة وحمص واللاذقية اختلافا غير قليل .

وإلى جانب هذا التنوع على المستوى الجغرافى يوجد تنوع على المستوى الاجتماعى ، وفى اللهجة الواحدة يمكننا أن نحصل على تنوعات تختلف باختلاف المستوى الثقافى والاجتماعى للمتحدثين بها ، فلهجة المتقنين غير لهجة الأميين ، ولهجة المدرسين غير لهجة الحرفيين ، ولهجة أهل المدينة تختلف عن لهجة أهل القرية ، ولهجة الأطفال غير لهجة البالغين ، ولهجة الرجال غير لهجة النساء ، ومن هنا يقال : إنه يوجد من المستويات اللغوية بقدر ما يوجد من الأفراد . بل إن الأساليب اللغوية التى يستخدمها الفرد الواحد تتغير بتغير الموضوع من جهة

والمشاركين أو المستمعين له من جهة أخرى ، فهناك الأسلوب الرسمي الذى نسمعه فى الخطب الرسمية ، والنشرات الإخبارية والبرامج العلمية ، وهذا يبدو فيه المستمع كما لو كان غير موجود ، ويغلب عليه طابع اللغة الفصحى ، وهناك أسلوب الكلام العادى الذى يستعمله الأصدقاء فيما بينهم ، ويستعمل فيه كثير من اللغة العامية ، وهناك الأسلوب الودى الذى يتحرر فيه المتكلم من الرسميات ، ويستعمله فى بيته مع زوجه وأفراد أسرته ، ويغلب على هذا الأسلوب طابع الكلام العامى .^(٥)

* * *

أسباب التنوع اللغوى:

ويرجع التنوع اللغوى إلى عدة أسباب أهمها :

١ - انفصام الوحدة السياسية لسكان المنطقة الواحدة وتفككها إلى دويلات أو دول مستقلة مما يؤدى إلى تفكك الوحدة الفكرية والشعورية واللغوية لسكانها . ومن المقرر أن مصير اللغة يتبع المصير السياسى لمكلميها ، فحيثما وجدت الوحدة السياسية تحققت الوحدة اللغوية . وحيثما وجد الصراع السياسى والإقليمى وجد الصراع اللغوى ، وقد لوحظ أن الدول التى تعاني من عدم استقرار سياسى هى أكثر الدول معاناة من ناحية الصراع اللغوى كما هو الشأن فى كثير من دول إفريقيا كالسودان وأثيوبيا والصومال ونيجيريا وبعض مناطق أوروبا وآسيا ، فيذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن الصراع الدموى الذى نشهده فى نيجيريا ليس إلا مظهرا لصراع لغوى بين لغة الهوسا فى الشمال ولغة الإيبو فى الجنوب .^(٦) ويقرر أيضا أن الصراع فى دول البلقان فى أوروبا يرجع أساسا إلى الاختلاف اللغوى ، وفى البلقان ست لغات رئيسية هى : التركية والرومانية والبلغارية واليونانية والألبانية وأخيرا الصربية والكرواتية فى يوغوسلافيا ، وبرزت القوميات البلقانية على أساس هذه اللغات^(٧) . بل يذهب فلوريان كولماس إلى أن " التعدد اللغوى يرتبط عادة بمستوى منخفض من التنمية الاقتصادية ، وبشكل خاص فى البلاد التى تقتصر لغة مشتركة مسيطرة ... كما هو الشأن فى كثير من الدول الأفريقية ."^(٨) ، وينقل عن بول قوله : " إن البلاد المجزأة لغويا بشكل كبير بلاد فقيرة دائما ."^(٩) ويتساءل

كولماس عن العوامل الكامنة وراء هذا الترابط بين التعدد اللغوى والفقر الاقتصادى ، وهو يرى " ألا أمل فى العثور على إجابة مرضية لهذا السؤال إلا إذا وضعنا فى الاعتبار أمرين مهمين أولهما : أن الأحادية اللغوية لمعظم الدول الأوربية هى نتيجة لعملية استغرقت قرونا لكى تكتمل . وثانيهما وهو أمر يتعلق باللغة : أن هناك اختلافات كيفية بين لغات كل من البلاد الصناعية والبلاد النامية ، وأكبر هذه الاختلافات هى خاصية معرفة القراءة والكتابة . " (١٠)

ويمكن توضيح هذه الخاصية بأن معرفة القراءة والكتابة لأبناء مجتمع ما تجعلهم أكثر تقارباً فى الثقافة ومناحى التفكير وأيسر تفاهماً فيتحقق لهم ما يمكن ان يسمى بالانسجام اللغوى ، وتقل بينهم حدة التعدد والاختلاف .

٢- الاختلاف فى النظم الاجتماعية والثقافية وما يرتبط به من اختلاف فى العادات والتقاليد والخصائص النفسية ؛ فإن كل ذلك يترك أثره واضحاً فى طرائق التعبير . يقول فنندريس : " تنوع اللهجات يرجع إلى تعدد الروابط الاجتماعية ، ولما كان من النادر أن يعيش فرد محصوراً فى مجموعة اجتماعية واحدة كان من النادر أيضاً أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة ؛ إذ يحمل كل فرد لغة مجموعته ، ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التى يدخل فيها . " (١١)

٣- كثرة الفروق الجغرافية بين سكان المناطق المختلفة ، فالاختلاف فى طبيعة البيئة والجو وكثرة الفواصل الطبيعية من جبال ، وبحار ، وأنهار ، وبحيرات يودى إلى فروق وفواصل فى اللغات . " (١٢)

وإذا كانت هذه الأسباب تعمل على اختلاف اللغات وتنوعها فإن ثمة أسباباً أخرى تعمل على توحيدها وائتلافها ؛ فإن اللغة عادة ما يتجاذبها اتجاهان متعارضان اتجاه نحو الانقسام والتنوع ، واتجاه نحو الائتلاف والتوحد .

أسباب التوحد اللغوى :

وتتلخص عوامل التوحد اللغوى فى خمسة أسباب هى :

١- الوحدة السياسية :

فحيث يقوى سلطان الدولة ، وتنحصر الحكومة المركزية المسيطرة على مجموعة من الأقاليم تتحقق لأهلها لغة مشتركة ، وتذوب بينهم الفروق اللغوية

واللهجية . وفى التاريخ القديم والحديث أمثلة على ذلك ، فقد كانت الامبراطورية الرومانية تضم دولاً شتى متعددة اللغات ، ولكنها بخضوعها لحكومة مركزية واحدة تحققت لها وحدتها اللغوية ممثلة فى اللغة الرسمية ، وهى اللاتينية ، وكذلك كان فى اليونان عدد من البلاد ذات اللهجات المحلية ، ولكنها تمتعت بلغة مشتركة بعد تحقق الوحدة السياسية لهذه البلاد . ولما أدركت الدول الأوروبية أثر الوحدة السياسية فى تماسك الشعب وقوته وأهمية اللغة فى تحقيق هذه الوحدة السياسية نشأت القوميات الحديثة على أساس الوحدة اللغوية ؛ فقد وحدت ألمانيا على أساس اللغة وحدها بعد أن كانت مجزأة إلى دويلات كثيرة ، وكذلك وحدت إيطاليا وفرنسا وإنجلترا على أساس اللغة أيضاً. ^(١٣) ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية عدد كبير من الأجناس والأعراق لم يكن من الممكن أن يتحقق لها أى تجانس ثقافى " ولكن الرابطة اللغوية - فى إطار اللغة الإنجليزية - قد جسمت هوية قومية ما كان لها أن تتشكل لولا التوحيد اللغوى . وكانت الجمهوريات الروسية فى مطلع القرن العشرين على قاب قوسين من تفتت لغوى حتمى كان سيؤدى قطعاً إلى امحاء اللغة الروسية المركزية . ولكن إرادة الإنسان قد تدخلت إذ قامت السلطة السياسية المركزية بما أسمته حملة التطهير اللغوى فقاومت نزعة اصطناع اللهجات العامية ، وخططت لإعادة نشر اللغة الروسية ، وشملت حملة رفع الأمية ٨٧ مليون مواطن. ^(١٤)

٢ - التجمعات البشرية :

ولها صور شتى منها اللقاءات الموسمية لأغراض دينية ، أو تجارية ، أو علمية ، أو رياضية مثل لقاء المسلمين فى الحج ، والتقاء الناس فى المعارض ، والأسواق العامة ، والمؤتمرات العلمية ، والنوادر الاجتماعية ، والمباريات الدولية. وكل هذه اللقاءات من شأنها أن تقرب بين اللغات المختلفة ، وتؤدى إلى ظهور ما يشبه لغة مشتركة للتفاهم بين الناس .

ومنها الجامعات والمعاهد العلمية حيث تضم الجامعات طلاباً من مختلف البيئات والثقافات ، ولكل منهم لهجة خاصة ، ولكن الاختلاط الشديد يؤدى إلى إذابة الفروق اللهجية بينهم. ^(١٥)

ومنها معسكرات التجنيد ، فالجيش مؤسسة جامعة للرجال المتميزين إلى أقاليم مختلفة التكوين الثقافي والاجتماعي واللغوي ، وهو يوحد بينهم فى المكان والزمان ، والمأكل ، والملبس ، وسائر الأعمال ، فأحر به أن يوحد بينهم فى الأقوال أيضا .

٣ - سهولة وسائل الاتصال :

وقد برزت أهمية هذا العامل فى العصر الحاضر ؛ حيث أدت ثورة الاتصالات الحديثة على مستوى الإذاعة ، والتلفزيون ، والأقمار الصناعية ، وشبكات الاتصال السلكية واللاسلكية ، والإلكترونية إلى ارتفاع الحواجز الجغرافية وتقريب المسافات والأبعاد بين الدول والشعوب ، مما أدى إلى تقارب العقول والوجدان ، وإذابة الفروق اللهجية بين أقطار الشعوب ذات اللغة الواحدة كما حدث بالنسبة للغة العربية الفصحى اليوم ، والتي يفهمها جميع العرب من المحيط إلى الخليج رغم التنوع اللهجي الشديد بينهم . يقول الدكتور عبد العزيز شرف : " واليوم يتقارب العرب تقاربا حثيث الخطى ، وتبرز معالم القومية العربية من نطاق الأمل إلى نطاق العمل ، ويجتهد العرب فى العمل على توحيد الثقافة المشتركة وتقاربها ، وتتصل البلاد العربية اتصالا دائما موصولا متواليا بالدراسة وأجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وغيرها ... ولا غرابة فى أن يتلهف العرب فى كل مكان لسماع الإذاعة العربية من أى قطر من أقطار العروبة هذه العوامل والخصائص تعاونت على أن تجعل اللغة العربية لغة مشتركة متصلة بالحياة قابلة للتطور والتجدد . " (١٦)

٤ - الدين :

فهو الجامعة التى تجمع قلوب معتقيه على شعور واحد وتوجه واحد ، وتزيل ما بينهم من خلافات وصراعات . وقد تمثل أثر الدين فى اللغة أفضل تمثيل فى علاقة الإسلام باللغة العربية ؛ فقد جعل القرآن للعرب جامعة دينية سياسية حفزتهم إلى التعرف والاختلاط فى المساجد والنوادي ومواقف الحروب . وقد استحكمت حلقات الوحدة العربية بهدايته ، وكان أكثر القائمين بالدعوة إلى تلك الهداية ممن ينطقون باللغة التى نطق بها القرآن . ولما خرج الإسلام من الجزيرة

إلى العراق والشام ومصر وسائر الممالك . ودخل من أهل تلك الممالك الكثير فى دين الله تعلموا اللغة لأسباب مختلفة بعضها دينى وبعضها دنيوى ، ومن غير المعقول أن يعالجوا غير لغة القرآن ، فزال الاختلاف ، ورجعت اللهجات المستكرهة بقايا أثرية . . . وبذلك التأم صدع العربية واجتمع شتيتها فى لغة العبادة والقراءة والكتابة .^(١٧)

٥ - الثقافة والأدب :

فالثقافة والأدب هما خلاصة الفكر وروح الفن ، وبهما ومنهما تتشكل هوية الأمة ، وتتحدد شخصيتها ، وللأدب خاصة دور هام فى إيجاد اللغة المشتركة كما حدث للأدب العربى فى العصر الجاهلى ، حيث تقاربت بفضل اللهجات العربية ، وامتزجت فى لغة واحدة مشتركة كان ينظم الشعراء عليها أشعارهم ، ويلقى بها الخطباء خطبهم . وقد ترسخ وجود هذه اللغة المشتركة فيما بعد بنزول القرآن الكريم .

* * *

اللغة والهوية :

وتعد اللغة - أيا كانت - من أهم مقومات الهوية القومية للشعوب ، فهى وعاء الثقافة ، وعنوان الشخصية ، وكما يقول اللغوى الألمانى هردر : "... ولغة الشعب تتمثل فى كل روح الشعب نفسه . إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين ."^(١٨) ويقول الفيلسوف الألمانى فيخته : " اللغة والقومية أمران متلازمان ومتعادلان . إن اللغة التى ترافق المرء ، وتحركه حتى أعماق أغوار تفكيره وإرادته هى التى تجعل منا نحن الألمان مجتمعاً متماسكاً يدبره عقل واحد . إن الذين يتكلمون لغة واحدة يؤلفون من أنفسهم كتلة موحدة ربطت الطبيعة بين أجزائها بروابط متينة ... إن الحدود التى تستحق أن تسمى حدوداً طبيعية بين الشعوب هى التى ترسمها اللغات ."^(١٩)

عناية الأمم المتحضرة بلغاتها القومية :

وقد حرصت الأمم المتحضرة على الاهتمام بلغاتها القومية حتى لا تتعرض للتفكك والانحلال ، وأصدرت لذلك القوانين التي تصون اللغة مما هو دخیل عليها . وكرست الجهود والطاقات والنفقات من أجل التمكين لها وترويجها داخليا وخارجيا .

فعلى المستوى الداخلى نجد بعض الدول تعلن حربا شاملة ضد غزو العبارات الأجنبية ، وتصدر القوانين التي تمنع من تداولها . فقد أقرت الحكومة الفرنسية فى ٥ مايو سنة ١٩٩٤م قانون إلزام الفرنسية الذى يمنع أى مواطن فرنسى من استخدام ألفاظ أو عبارات أجنبية طالما أن هناك ألفاظا أو عبارات مماثلة . والمجالات التي يسرى عليها الحظر هي :

- كافة الوثائق والمستندات والإعلانات المسموعة والمرئية .
- كافة مكاتبات الشركات العاملة على الأرض الفرنسية ، وبوجه خاص المحلات التجارية ، والأفلام الدعائية التي تبث عبر الإذاعة والتلفزيون . وعقوبة المخالفة تتضمن السجن أو غرامة تصل إلى ألفى دولار .^(٢٠)

وفى ألمانيا يوجد كثير من اللهجات العامية إلى جوار اللغة الفصحى ، وهذه العاميات محرم عليها أن تدخل المدارس ، أو الجامعات ، أو المحاكم ، وكذلك البريد ، وإدارات الحكومة الأخرى ، والنوادي الأدبية ، والصحافة ، والإذاعة . وفى المدن لا تستعمل العامية إلا فى النكت المضحكة ، أما فى القرى فإن الفلاحين يتكلمون باللغات العامية فى مزارعهم وأسواقهم ، ولكنهم كلهم قادرون على التكلم بالفصحى ؛ فكلهم متعلمون ليس بينهم أمى واحد .^(٢١)

أما اليهود فقد تمكنوا من تطوير اللغة العبرية الميته إلى لغة حديثة ، فالعبرية تغذى يوميا بكلمات جديدة وأساليب متطورة بفضل حركة الترجمة الواسعة التي تتم فى إسرائيل . وقد كان اليهود فى مطلع هذا القرن مبعثرين فى القارات الخمس تتكلم جالياتهم لغات لا حصر لها ، فعرف علماءهم أن لا سبيل إلى جمع كلمتهم إلا بلغة جامعة فأخذوا أنفسهم جيلا بعد جيل بإحياء العبرية القديمة الميته .^(٢٢)

وعلى المستوى الخارجى نجد تنافسا وسعيًا حثيثًا من قبل الدول الكبرى لامتلاك حلبة الصراع اللغوى العالمى . وقد عد بعض الباحثين المعاصرين هذا الصراع مظهرًا من مظاهر صراع العولمة ومحاولات الدول الكبرى الإمساك بزمامات الكونية . فيذكر الدكتور عبد السلام المسدى أن " الذى كثيرا ما يخفى على الإنسان هو أن الحروب اللغوية بين المجموعات البشرية ليست أقل ضراوة من الحروب العسكرية المكشوفة ، وأن الصراعات اللغوية بين معاقل الثقافات قد تحدث ، فتشعل فتائل حرب تجارية واقتصادية وعسكرية ؛ لأن اللغة من خلال الثقافة ، والثقافة من خلال اللغة هو الأمر الوحيد الذى به يتحقق الانتصار أو الانهزام ^(٢٣) . ويقرر أن " تنافس العظماء الدوليين على كسب مراكز النفوذ وصراع الكبار على الإمساك بزمامات الكونية إنما يرتديان الثوب اللغوى فى كل جولة من جولاتهما . وأقوى الأدلة فى هذا المقام وأعنفها شراسة - بل وأمضاها تجريحا فى شرايين الهوية البائسة - الحرب الصامتة الضروس الدائرة اليوم بين الإنجليزية والفرنسية فى معادلات من القوى تتوازن يوما وتختل أياما ^(٢٤) .

ومن مظاهر هذا الصراع أن فرنسا سعت - منافسة منها للمد المتنامى للغة الإنجليزية - إلى تكوين رابطة الدول الناطقة باللغة الفرنسية ، وهى ما عرفت باسم (الفرنكوفونية) . ويجتمع أعضاء هذه الرابطة فى مؤتمرات منتظمة لمناقشة شئونهم ومصالحهم باللسان الفرنسى . وفى المؤتمر الأول لرؤساء هذه الدول تم وضع الخطط لبناء مستقبل اللغة الفرنسية ومواجهة اللغة الإنجليزية الزاحفة فى ميادين العلم والتقنية ، وقال الرئيس الفرنسى ميتران : " هل سيكون علينا أن نعلم الحاسوب اللغة الإنجليزية حتى يستطيع أن يختزن معلوماتنا وتقنياتنا ويسعفنا فى بناء مستقبلنا ؟ " ، واتفق المشاركون فى هذا المؤتمر على إنشاء مؤسسة علمية للحفاظ على اللغة الفرنسية يكون من أهدافها :

١- خلق حوار بين الدول الناطقة بالفرنسية فى القضايا العلمية والثقافية إلى جانب القضايا السياسية .

٢- تنمية وسائل الإعلام باللغة الفرنسية .

٣- استعمال التكنولوجيا الحديثة بنفس اللغة .

٤- تكوين بنك للمعلومات لمواجهة طغيان اللغة الإنجليزية والتكنولوجيا الأمريكية.

٥- إنشاء وكالة للدول الناطقة بالفرنسية لبث الصور التلفزيونية حتى يطغى هذا البث على استقبال الصور الإنجليزية ، وإرسال برامج باللغة الفرنسية بالقمر الصناعي لجميع الدول الناطقة بالفرنسية .

٦- طبع الكتب المدرسية ونشر مجموعة كتب الجيب بالفرنسية .

٧- إنشاء جائزة دولية للابتكار في مجال اللغة .

٨- إنشاء معهد لتأهيل الأطر التقنية المتخصصة في الطاقة باللغة الفرنسية في دول العالم الثالث .^(٢٥)

وتعد فرنسا من أكثر الدول سخاء في الإنفاق على مشروعات الترويج اللغوى ، "وقد قدرت النفقات الحكومية بالفعل في العام ١٩٧٧م بما بين ٢٥ و ٣٠ بليون فرنك . وهذه النفود أنفقت على تشغيل ١٢٠٠ مكتب للتحالف الفرنسى فى أكثر من مائة بلد ، وعلى المجلس الأعلى للفرنكفونية الذى أنشأه الرئيس ميتران فى العام ١٩٨٤م ، وكذلك على بعض المؤسسات الأخرى مثل مكتب اللغة الفرنسية الذى أنشئ فى العام ١٩٣٧م ، ولجنة دراسة المصطلحات الفنية الفرنسية التى كونت فى العام ١٩٥٤م .^(٢٦)

وفى قمة داکار الفرنكفونية (٢٤ - ٢٨ مايو ١٩٨٩) أعلن الرئيس ميتران بأن فرنسا سوف تلغى الدين العام للبلدان الأفريقية الخمسة والثلاثين الأفقر ، وهو ١٦ بليون فرنك فى جملته ، وفى المقابل ينتظر من هذه البلدان أن تستمر فى ضمان الدور المتفوق للغة الفرنسية فى الحكومة والتعليم .^(٢٧)

وبالطبع لا تقل الجهود الأمريكية والبريطانية عن مثيلاتها الفرنسية فى هذا المجال " ففى الولايات المتحدة تستخدم على الأقل خمس هيئات مختلفة للترويج للإنجليزية هى : وكالة التنمية الدولية ، ووكالة الإعلان الأمريكية ، وفرق السداد وإدارة الدولة ، وإدارة الدفاع ."^(٢٨)

وفى بريطانيا خصصت ميزانية سنوية " قدرها ٢٠٠ مليون جنيه استرليني لنشر اللغة الإنجليزية من خلال برامج " تعليم اللغة فى هيئة الإذاعة

البريطانية "المدعومة مالياً من القطاع الحكومي .وبرامج " سلسلة تعليم الإنجليزية " من خلال الإذاعة والتلفزة ، تصل إلى جمهور أكبر من جمهور برامج أى لغة أخرى فى العالم . " (٢٩)

وفى ألمانيا أنشئ قسم لدى وزارة الخارجية لترويج اللغة الألمانية يخصص حوالى ٥٠٠ مليون مارك ألماني فى العام لإعانات التصدير اللغوى ، وهذا باستعمال هيئات وسيطة مثل معهد جوتة والهيئة الألمانية للتبادل الأكاديمى والمكتب المركزى للمدارس الألمانية فى الخارج . (٣٠)

* * *

الاستعمار ومحاربة الهوية اللغوية :

ولأن اللغة هى روح الأمة وعمودها الفقرى ورمز هويتها فقد عمل الاستعمار على طمس لغة المحكومين يفرق بذلك جماعتهم وينسيهم تاريخهم لتكون له البلاد لقمة سائغة فيبتلعها دون عناء أو عسر .

فحين أرادت فرنسا أن تبتلع الجزائر كان أول ما استعانت به على محو شخصيتها أن فرضت عليها لغتها وثقافتها الفرنسية ، وحرمت فى الوقت نفسه تدريس اللغة العربية والتعامل بها ، وكانت الفرنسية لغة كتابة وتعليم وصحافة ومحافل ، وانزوت اللغة العربية حتى كادت تنسى فى تونس والجزائر والمغرب (٣١).

وفعلت بريطانيا مثل ذلك فى الهند ، حيث فرضت اللغة الإنجليزية فيها ، ونجحت فى أن تجعل من هذه اللغة الأجنبية فى جميع مناطق الهند لغة مشتركة توحد بين أقاليمها المختلفة وطوائفها المتباينة . واتخذ الاستعمار البريطانى للهند أسلوباً خطيراً للقضاء على اللغة العربية التى كانت شائعة من قبل ، فاتخذ فى كلية فورت لغتين أو لاهما الأردية وهى للمسلمين ، وثانيهما الهندية للهندوس ، واتخذ من ذلك ذريعة لإحداث الفرقة بين الهندوس والمسلمين . (٣٢)

وفى مصر أيضاً فرضت بريطانيا اللغة الإنجليزية لغة تعليم ، ونشطت فى الدعوة إلى إحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى ، وفى الدعوة إلى كتابة اللغة العربية أياً كانت كانت فصحى أو غير فصحى بالحروف اللاتينية ، وكان للاستعمار

دعاة وعملاء داخل البلاد يروجون لأفكاره^(٣٣) ولولا الإسلام والأزهر لأصبح مصير اللغة العربية في مصر هو المصير نفسه في الهند .

كذلك استعانت إسرائيل في طمس الهوية العربية للشعب الفلسطيني بالتلاعب بالألفاظ ، فعملت على تسمية الصراع العربي الإسرائيلي بمشكلة الشرق الأوسط ، أو المشكلة الشرق أوسطية . ويطلق اليهود على الشعوب العربية القاطنة في هذه المنطقة شعوب الشرق الأوسط ، وهم يصرون على تسمية خليج العقبة في خرائطهم ونشرااتهم (بخليج ايلات) إحياء للاسم العبري القديم وتسمية الضفة الغربية (يهوذا والسامرة) يقصدون جنوب الضفة وشمالها^(٣٤) . وكذلك فعلوا في كثير من المدن والأماكن حيث استبدلوا بالأسماء العربية أسماء عبرية .

ومن أساليب الاستعمار الغربي للدول العربية التوسع في إنشاء المدارس الأجنبية وما يسمى بمدارس اللغات التي تقوم على مناهج غير عربية تقدم كلها أو معظمها باللغات الأجنبية مما يؤدي إلى حجب اللغة العربية عن تأدية وظائفها الأساسية في وطنها ، وهي كونها الأداة الأولى والأخيرة في التعليم ، وقد أدى هذا الوضع الغريب إلى انشطار الهوية الثقافية والاجتماعية للمجتمع وتمزق أبناء الوطن الواحد ، وكلها أمور تصيب هويتنا وشخصيتنا القومية في مقتل^(٣٥) .

* * *

العولمة اللغوية :

ولم يكتف الاستعمار بما فعله في الحقبة الماضية من احتلال للبلاد وتدمير للعباد وإفساد للحرث والنسل . بل أراد أن يعود إلى البلاد التي استعمرها من قبل في صورة جديدة هي نوع من الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي ، فقد جاءتتنا النذر في أوائل عقد التسعينيات وعقب سقوط الاتحاد السوفيتي بأن الهيمنة الغربية الأمريكية على وجه الخصوص سوف تبسط نفوذها على العالم كله ، وأن الدول جميعها سوف تتبلور في نظام عالمي واحد بحيث يصبح العالم قرية واحدة يهيمن فيها نموذج اقتصادي وثقافي وإعلامي واحد هو النموذج الأمريكي ، وهو ما يمثل خطرا على ثقافات الأمم الأخرى وأديانها وأدابها ولغاتها . ويخالف في الوقت نفسه السنن الكونية التي وضعها الله للخلق ، والتي هي سر التنافس فيما بينهم .

والحق أن ظاهرة العولمة ليست جديدة تماماً ، وإنما هي نوع من الاستعمار الثقافي الذي كانت تمارسه من قبل الدول الكبرى ، والذي عرفته الدول النامية باسم الغزو الثقافي أو التغريب غير أنه في هذه المرة أشد قسوة وأعظم تأثيراً .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن ظاهرة العولمة ظاهرة حتمية ، وأنه لا سبيل إلى مقاومتها أو الفكاك عنها ، أما أولاً فلأن في ذلك مخالفة لسنن الله الطبيعية ، والتي اقتضت اختلاف الناس وتفاوتهم في الخصوصيات والإمكانات فكيف يمكن إزالة هذه الخصوصيات ودمجها في شيء واحد ؟ ، والله تعالى يقول : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلَفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ) . وأما ثانياً فلأن فيه استسلاماً ورضاً بالموت والانسلاخ عن الهوية بالكلية . وأما ثالثاً فلأن مصدر هذه المقولة والمروج لها هو الطرف المنتصر الذي يلجأ إلى التهويل والمبالغة لتكريس الضعف في الطرف الآخر .

والذي يعنيننا هو رصد آثار هذه العولمة ومظاهرها من الناحية اللغوية لما لها من صلة وثيقة بموضوع الهوية والتنوع اللغوي .
الدعوة إلى اللغة العالمية :

لقد كان فيما مضى محاولات تسعى إلى فرض لغة واحدة على البشر ، وإن تزيت بالزى العلمي ، ورفعت شعارات المحبة والسلام والإخاء الإنساني ، وقد تمثل ذلك فيما عرف باللغة العالمية ، والتي بدأت الدعوة إليها منذ القرن السابع عشر ، واختلف العلماء في شأنها بين مؤيد لها مقتنع بها ، ومعارض لها متشكك في وجودها ، وقد أخذت الدعوة إلى هذه اللغة العالمية شكلين : قام أولهما على اختيار لغة طبيعية ، وقام الآخر على وضع لغة صناعية ، واختلف دعاة اللغة الطبيعية ، فمنهم من دعا إلى اختيار إحدى اللغات الحية كما هي وفرضها على المتكلمين بوصفها لغة عالمية ، ثم اختلف هؤلاء أيضاً حول أى اللغات تختار ، هل هي اللاتينية أم الإغريقية أم الفرنسية أم الإنجليزية ؟

ومنهم من دعا إلى اختيار إحدى اللغات الحية مع إجراء تعديلات عليها ، ومن ذلك محاولة قام بها بعض علماء الإنجليز أطلق عليها اللغة الإنجليزية الأساسية تم فيها اختصار كلمات الإنجليزية إلى أقل من ألف كلمة ، ثم ظهر

مقلدون لهذه المحاولة فى لغات أخرى ، فظهر ما يسمى بالأسبانية الأساسية ،
والروسية الأساسية ، والصينية الأساسية ، واللغة العالمية الأمريكية الحديثة .

أما الشكل الثانى من أشكال اللغة العالمية فقد ظهر فى صورة لغات
اصطناعية قام بتركيبها عدد من العلماء ، وهدفت إلى تحقيق جملة من المواصفات
أهمها الخلو من عيوب اللغات الطبيعية كالشدوذ واللامنطقية وصعوبة الهجاء .

لكن أكثر هذه المحاولات وئد فى مهده سوى محاولة واحدة لقيت بعض
الرواج ، وهى ما عرف " بالاسبرانتو " ، وقد وضعها لغوى بولندى يدعى
" لازاروس زمنهوف " سنة ١٨٨٧م ، واعتمد فى تشكيلها على لغات أربع هى
اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية ، ولاقت رواجا كبيرا بين الأوربيين
لسهولة تعلمهم لها .

وقد اعترف " بالاسبرانتو " فى المجتمعات الدولية ، ولأنصارها جمعية
عالمية انضم إليها أعضاء من ثلاث وثمانين دولة .

ومع كل هذا لم تستطع " الاسبرانتو " ولا غيرها من اللغات الاصطناعية
منافسة أقل اللغات الطبيعية انتشارا ، وتبين حتى لأنصارها عجزها عن الوفاء
بمطالب الحياة المختلفة ، والتعبير عن دقائق الفكر ومسائل الدين والعلم
والفلسفة^(٣٦)؛ والسبب فى ذلك أن القوانين الطبيعية التى وضعها الله للغات تأبى
الثبات والجمود ، وتتقضى الاختلاف والتطور الدائم .

وقد انتقد بعض علماء اللغة العرب فكرة اللغة العالمية بأنها على فرض
إمكان اختراعها لا تلبث أن تخضع لقوانين التطور والاختلاف شأن جميع اللغات
الطبيعية كما خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان ؛ لأن الناس مختلفون فى
ظروفهم الجغرافية والطبيعية والاجتماعية ، وسنة الله قاضية باختلاف كل جيل
عن سابقه ، فلا بد أن تختلف هذه اللغة ، وتنقسم إلى لهجات متعددة .^(٣٧)

واليوم تنترين الدعوة إلى اللغة العالمية زيا جديدا يتمثل فيما يعرف بالنظام
العالمى أو العولمة الجديدة . ذلك أن هذه العولمة بما ترمى إليه من هيمنة سياسية
واقتصادية وثقافية لابد أن تستتبع هيمنة لغوية ، وهذا ما يقرره المحللون السياسيون
والاقتصاديون فى الغرب والشرق . يقول عمانويل فالرشتاين فى مقال له بعنوان

الثقافة كمعترك أيديولوجي للنسق العالمي الحديث : " الحداثة تتطلب التغريب ثقافيا . ومن لم يعتنق إحدى ديانات الغرب عليه أن يتخذ إحدى لغاته . ومن لم يتخذ إحدى لغات الغرب فعليه على الأقل أن يتقبل تكنولوجيا الغرب التي يقال إنها تقوم على مبادئ العلم العالمية . " (٣٨)

ويقول أرجون أبادوراي : وعولمة الثقافة تختلف عن توحيدها ، إلا أن العولمة تشمل أيضا الاستعانة بعدد من أدوات التوحيد (الأسلحة أو تقنيات الإعلان أو أشكال الهيمنة اللغوية أو الأزياء وما إلى ذلك) . " (٣٩)

ويقول فردريش تمبروك : " فبينما كانت وسائل الإعلام تعتمد فيما مضى على اللغة ، وبالتالي كانت موجهة لجمهور قومي ، فإنها اليوم تتخطى الحدود اللغوية والثقافية بسهولة باعتمادها على الصوت والصورة ، وبذلك أصبحت أدوات مباشرة لنقل الصور والرسائل العابرة للثقافات . " (٤٠)

ويقرر الدكتور المسدي أن " النظام العالمي الجديد في كونه تلك لابد له أن يتضمن مشروعا لغويا بلا أى تشكك وفي غير ترتيب . فاللغة هي الحامل الأكبر للمنتج الثقافي ، وهي الجسر الأعظم للمسوق الإعلامي ، وهي السيف الأمضى في الاختراق النفسي ، وعليها مدار كل تسلل أيديولوجي أو اندساس حضارى . فعمالقة الأممية وجبايرة العولمة . . . يعلمون علم اليقين أن اللغة هي أم المرجعيات في تشييد المعمار الحضارى وفي بناء صرحه الثقافي . " (٤١)

وقد بدأت آثار هذه العولمة تتبدى في سيطرة اللغات الأجنبية على مظاهر حياتنا ، وفي تسمية المحلات والشركات والمنتجات بأسماء أجنبية ، وتزيين الملابس واللعب والهدايا بالكلمات الأجنبية ، وكذلك تسمية الأبناء والبنات بالأسماء الأجنبية .

ومن مظاهر العولمة اللغوية كذلك ما نراه من انتشار مراكز تعليم اللغات الأجنبية ، وخصوصا امتحانات (التيوفل) التي تنظمها أمريكا في جميع بقاع العالم ، وأصبحت شرطا أساسيا من شروط الالتحاق بالجامعات الأمريكية والحصول على وظائف مرموقة في شتى البلدان .

ومنها أيضا إقرار اللغة الإنجليزية لغة التفاهم في التجارة الدولية (٤٢) . واعتمادها لغة رئيسية للمنظمات الدولية ووسائل الإعلام والسياحة . ومن مظاهر

الهيمنة اللغوية " أن البلاد المتحدة بالإنجليزية فى مجموعها هى اليوم إلى حد بعيد أكبر سوق مستوردة فى العالم ، ونسبة البريد العالمى الذى يكتب بالإنجليزية تقدر بسبعين فى المائة ، كما أن ٨٠% من كل المعلومات المخزنة فى بنوك المعلومات مخزنة بالإنجليزية .^(٤٣)

إن العولمة فى حقيقتها نوع من الاستعمار الجديد الذى يسعى إلى السيطرة على البشر ، ووضعهم فى حالة من التبعية الكاملة من خلال الإعلام والتعليم واللغة.

وليس الخلاص من مشكلة العولمة أن ندير ظهورنا لها ، ونعزل عما يجرى فى الحياة من تغيرات ، ولا هو أن نلقى بأنفسنا ونذوب فيها ؛ فإن هذا معناه الموت والضياع .

ولكن الخلاص يكمن فى دعم هويتنا القومية عربيا وإسلاميا ، وإشارة الحمية الوطنية ، وبث روح الغيرة على اللغة العربية فى نفوس أبنائنا ، والتعامل مع اللغة لا على أنها مجرد وسيلة للتفاهم ، وإنما بوصفها عنوان هويتنا ووعاء ثقافتنا . وقد أدركت كثير من الدول أنه لا سبيل إلى مواجهة خطر العولمة إلا بعمل تكتلات ضخمة ، فاندمجت الدول الأوروبية فيما يسمى بالاتحاد الأوروبى ، وأنشأت أمريكا مع كندا والمكسيك رابطة (النافتا) ، وكونت الدول الناطقة بالفرنسية الرابطة (الفرنكفونية) ، وكونت الدول الناطقة بالإنجليزية منظمة (الكمنولث) إلى جانب مجموعة الجمهوريات المستقلة عن الاتحاد السوفيتى المسماة (بالكمونولث) أيضا ، وكونت دول جنوب شرق آسيا رابطة (الآسيان) . ورغم هذا لم نسمع حتى الآن - وللأسف - عن تكون رابطة عربية قوية ^(٤٤) . ونأمل أن يتجه العرب إلى مثل ذلك ، فيكونوا وحدة عربية حقيقية تقوم على وحدة اللغة والثقافة والتاريخ وسائر المقومات العربية والإسلامية ، وتحقق التعاون العربى المتكامل على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية . ولا سيما أن مقومات هذه الوحدة متوفرة إلى حد كبير وفى مقدمتها الوحدة اللغوية .

* * *

وحدة اللغة العربية وخصوصيتها :

وقد توفر اللغة العربية من عوامل التوحد قديماً وحديثاً ما حفظها على مر العصور ، ووسع من نطاق انتشارها ، وكان أهم هذه العوامل هو العامل الدينى المتمثل فى القرآن الكريم الذى بفضلته توحدت ألسن الناطقين بالعربية ، فهو يقرأ على الأقل خمس مرات فى اليوم واليلة ، ويرتل ويحفظ من عدد كبير من المسلمين ، ولولاه لأصاب اللغة العربية ما أصاب غيرها من عوامل الانتشار والانقراض مثلما حدث للاتينية التى انقرضت بفعل الزمن ، وتحولت لهجاتها إلى لغات جديدة إنجليزية ، وفرنسية ، وألمانية ، وأسبانية ، وغيرها .

وتشهد اللغة العربية اليوم — رغم ما تعانیه من مشكلات — نهضة واسعة على المستويين المحلى والعالمى ، وذلك بفضل تقدم وسائل الاتصال الحديثة التى تحاول مخاطبة أكبر عدد من الناس ، ولا تتقيد بقطر معين ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باستعمال اللغة المشتركة التى يفهمها جميع العرب ، وهى اللغة العربية الفصحى ، واللافت للنظر حقاً أن الإذاعات الموجهة من دول صديقة أو استعمارية فضلاً عن الإذاعات العربية تتفق جميعها على حقيقة واحدة ، وهى أنه لا مجال للهجات المحلية فى وسائل الإعلام وأن وسيلة الاتصال الحقيقية هى اللغة العربية الفصحى المشتركة ، وليست هذه الإذاعات الأجنبية بالطبع بأحرص على اللغة العربية من أهلها ، ولكن القائمين عليها يدركون طبيعة اللغة العربية الفصحى ، وأنها لغة ملايين العرب من المحيط إلى الخليج ولغة مليار مسلم وثلاث فى جميع أنحاء العالم .^(٤٥)

وتؤكد الإحصاءات العالمية أن اللغة العربية تحتل المكان الثالث بين لغات العالم من حيث انتشارها وسعة مناطقها .^(٤٦) وقد تحقق لها من سمات العالمية بالإضافة إلى سعة الانتشار أنها عمرت نحواً من سبعة عشر قرناً محتفظة بخصائصها الصوتية والصرفية والنحوية ، و صمدت فى كل تاريخها فلم يصيبها ملأ أصاب غيرها من عوامل التفتت والاندثار على حين أن غيرها من اللغات لا يتعدى عمره أربعة قرون ، وأنها لغة حضارية حملت التراث العلمى والمعرفة الإنسانية وطورتها وأسلمتها إلى النهضة الأوروبية الحديثة . وأنها رحبت بكثير من الألفاظ المقترضة من لغات أخرى واستغلتها فى المصطلحات العلمية ولغة الكلام . وأنها

لغة ديمقراطية لا تخاطب الكبير بخطاب والصغير بخطاب ، ولا تخط بين ضمير المفرد وضمير الجمع إلى غير ذلك من الأساليب الأصلية .^(٤٧)

وقد شهد بعض علماء الغرب المنصفين بفضل اللغة العربية ، فيقول المستشرق ارنست رينان : " إن من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر ، وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء ، فبدات فجأة فى غاية الكمال سلسلة أى سلاسة ، غنية أى غنى كاملة ، بحيث لم يدخل عليها منذ يومها هذا أى تعديل مهم . " ^(٤٨)

ويقول الألماني بروكلمان : " بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أى لغة من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذى أحل لهم أن يستعملوه فى صلواتهم ، وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى . " ^(٤٩)

ويقول سارتون : " إن لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التى اختارها الله للوحي كانت بهذا التحديد كاملة . . . وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى فى التعبير عن المقاصد ، وجعل منها وسيلة دولية للتعبير عن أسى مقتضيات الحياة . " ^(٥٠)

وقد أعلن الكاتب الأسباني كاميلو جوزى سيللا الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٩م عن تنبؤاته المستقبلية فيما يتصل بمصير الألسنة البشرية ، وأحدث كلامه دوبا فى الأوساط الثقافية العالمية . " فقد ارتأى أن الثورة الاتصالية التى اختزلت بعد الزمان ، وألغت بعد المكان ، وتجاوزت بواسطة الصورة حواجز أدوات التعبير ستؤدى تدريجيا إلى انسحاب أغلب اللغات من ساحة التعامل الكونى وإلى تقلصها فى أحجام محلية ضيقة ، ولن يبقى من اللغات البشرية إلا أربع قادرة على الحضور العالمى وعلى التداول الإنسانى ، وهى الإنجليزية ، والأسبانية ، والعربية ، والصينية . " ^(٥١)

ومعنى هذا أن اللغة العربية لغة عالمية ، لا بمعنى أنها اللغة الوحيدة فى العالم أو التى يرجى لها ذلك على نحو ما رأينا فى الدعوة إلى لغة الاسبرانتو ، ولكن على معنى أنها لغة ذات شهرة عالمية من حيث انتشارها وعدد الناطقين بها .

والعالمية بهذا المعنى ليس فيها ما يضر لأنها لا تعنى رفض اللغات الأخرى ولا تتوسل إلى ذلك بقوى القهر والعدوان أو التهوين مما عند الآخرين .

الخاتمة

ونأتى فى خاتمة هذا البحث إلى أهم النتائج المستخلصة منه ، ثم نتبعها بذكر بعض التوصيات فيما يتعلق بالنهوض باللغة العربية ومن أهم النتائج :

١- اختلاف اللغات حقيقة ، وهو كغيره من ألوان الاختلاف سنة طبيعية ، وأية من آيات الله الكونية .

٢- يتنازع اللغة اتجاهان : اتجاه نحو التنوع ، واتجاه نحو التوحد ، ولكل منهما أسبابه .

فمن أسباب التنوع :

- انفصام الوحدة السياسية .
- الاختلاف فى النظم الاجتماعية والثقافية .
- كثرة الفروق الطبيعية والجغرافية .

ومن أسباب التوحد :

- الوحدة السياسية .
- التجمعات البشرية .
- سهولة وسائل الاتصال .
- الدين .
- الثقافة والأدب .

١- اللغة من أهم مقومات الهوية الخاصة بالشعوب ، فهى وعاء الثقافة وعنوان الشخصية .

٢- تحرص الأمم المتحضرة على لغاتها القومية ، وتعمل على حفظها ونشرها بشتى الطرق والوسائل ، وتتنافس الدول فى ذلك تنافسا يصل إلى حد الصراع اللغوى الذى لا يقل ضراوة عن الصراع السياسى والعسكرى ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما نشهده من صراع بين الإنجليزية والفرنسية .

٣- اللغة هى البوابة الرئيسية التى يدخل منها الاستعمار إلى القضاء على الهوية القومية للشعوب .

٤- العولمة نوع من الاستعمار الجديد الذى يستهدف تدمير الثقافات ، والاداب ، واللغات فى نمط واحد ، وهو ما يهدد كيانات الأمم ، ويصيب هويتها الخاصة فى مقتل .

٥- العولمة ليست ظاهرة حتمية ؛ لأنها تخالف الطبيعة وسننها الفطرية وحقائق التنوع الكائنة فى جميع المخلوقات . ولكنها نزع عدوانية ، وتحتاج إلى مقاومة الشعوب لها .

٦- الموقف الحق من العولمة ليس بالذوبان فيها أو الهروب منها ، ولكنه باتخاذ طريق ثالث نحو التوحد الإسلامى والعربى على كافة المستويات الاقتصادية والثقافية واللغوية . مثلما فعلت كثير من دول العالم فى اندماجها فى كتلت اتحادات كبرى كالاتحاد الأوروبى والنافتا والكمونولث وغيرها .

٧- الدعوة إلى اللغة العالمية دعوة باطلة ومرفوضة ؛ لأنها كالعولمة تستهدف القضاء على جميع اللغات ودمجها فى لغة واحدة ، وهو غير ممكن ؛ لأنه يخالف حقيقة التنوع اللغوى وحقيقة التنوع العام فى الكائنات .

٨- تتمثل العولمة اللغوية فى غزو اللغات الأجنبية لمجالات حياتنا المختلفة ، وفى انتشار مدارس اللغات ومراكز تعليمها ، وفى تسمية المحلات والشركات والمنتجات بالأسماء الأجنبية وفى تزيين الملابس والهدايا بها إلى غير ذلك .

٩- سبيلنا إلى الخروج من فخ العولمة هو دعم هويتنا الإسلامية والعربية بتحقيق الوحدة فى شتى المجالات وخصوصا اللغوى ، وفى هذا الصدد أفضى بهذه التوصيات عليها تجد سبيلها إلى التحقق يوما ما .

توصيات

١- العمل على تحقيق الوحدة اللغوية ، وتعميق الإيمان بجدوى هذه الوحدة بالنسبة لمستقبلنا السياسى ، والاقتصادى ، والاجتماعى .

٢- تكاتف جهود الحكومات والمنظمات العربية والمجامع اللغوية للتقليل من الاختلافات اللهجية .

- ٣- محاربة الأمية وتعميم التعليم .
- ٤- كتابة الأعمال الأدبية من قصة ومسرحية ورواية وفيلم ومسلسل باللغة العربية الفصحى .
- ٥- تشريع قانون للحد من غزو اللغات الأجنبية .
- ٦- القضاء على الازدواجية اللغوية وخصوصاً في مجال التعليم .
- ٧- جعل اللغة العربية لغة التعليم الأساسية في المدارس والجامعات .
- ٨- جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الإعلانات التجارية .
- ٩- توظيف اللغة العربية في مجالات الحياة المختلفة بحيث تكون لغة استماع وتخطب وتعامل في المصالح الحكومية .
- ١٠- العمل على إنشاء معاجم عصرية على غرار معاجم اللغات الأجنبية يسهل تداولها بين أبناء الدول العربية .
- ١١- العمل على إنشاء معجم تاريخي يبين التطورات الاستعمالية للغة العربية .
- ١٢- إنشاء مؤسسة كبرى للترجمة والتعريب بجهود عربية مشتركة لنقل العلوم والمعارف الحديثة إلى اللغة العربية ومواكبة التطور العلمي المتلاحق .

الهوامش

- (١) وقيل الإشارة للرحمة المفهومة من قوله تعالى (إلا من رحم ربك) ، وقيل : للرحمة والاختلاف معاً . انظر تفسير الطبري ١٣٩/٧ - ١٤٠ ، دار الكتب العلمية بيروت .
- ط١ - ١٩٩٢ ، وتفسير القرطبي ٣٣٤٣/٥ دار الريان للتراث ١٩٨٧ ، وتفسير ابن كثير ٤٦٦/٢ مكتبة الثقافة الدينية .
- (٢) اللغة ، لفندريس ٣١٥، ٣١٦ ، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص مكتبة الأنجلو المصرية .
- (٣) انظر : اللغة بين القومية والعالمية ، للدكتور إبراهيم أنيس ١٩٠ - دار المعارف .
- (٤) انظر في هذه الإحصاءات : كتاب اللغة والاقتصاد لفوريان كولماس ٢٧ - ترجمة الدكتور أحمد عوض - عالم المعرفة - ٢٠٠٠ .

- (٥) ينظر : علم اللغة الاجتماعي ، للدكتور صبرى إبراهيم السيد ١١١ ، ١١٢ - الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥ م .
- (٦) انظر : اللغة بين القومية والعالمية ١٦٦ .
- (٧) انظر : السابق ١٤٠ ، ١٤١ .
- (٨) اللغة والاقتصاد ٥٩ .
- (٩) السابق ٥٨ .
- (١٠) السابق ٤٠ .
- (١١) اللغة لفندريس ٣٠٧ .
- (١٢) راجع فى هذه الأسباب وغيرها : علم اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافى ١٧٥ - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - ط ١٠ - ١٩٩٧ م .
- (١٣) انظر : اللغة بين القومية والعالمية ١٠٨ .
- (١٤) العولمة والعولمة المضادة ، للدكتور عبد السلام المسدى ٣٩٩ - مطابع لوتس - الفجالة ١٩٩٩ م .
- (١٥) انظر دور التجمعات البشرية فى التوحد اللغوى : علم اللغة الاجتماعي للدكتور كمال بشر ١٤٥-١٤٨ - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .
- (١٦) اللغة العربية والفكر المستقبلى ١٧٧- دار الجيل - بيروت - ط ١ - ١٩٩١ م .
- (١٧) أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية ، لأحمد حسن الباقورى ٤١-٤٢- دار المعارف - ط ٤- ١٩٨٧ م .
- (١٨) نقلا عن اللغة بين القومية والعالمية ١٠٤ .
- (١٩) نقلا عن السابق ١٠٦ .
- (٢٠) من مقال : رسالة فى الحسد والحزن ، لفهمى هويدى - جريدة الأهرام ١٩٩٤/٦/٧ م .
- (٢١) من مقال : لغتنا العربية للبقاء لا للفناء ، للدكتور تقى الدين هلال - مجلة العربى عدد رجب ١٣٧٨ هـ .

- (٢٢) راجع : حاضر اللغة العربية فى الشام ، للأستاذ سعيد الأفغانى ١٧١ . جامعة الدول العربية - معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٦١م وانظر أيضا : لغتنا العربية والسياسة . للدكتور عبد الحى عبد الحق ٩ - العربى للنشر والتوزيع بلا تاريخ .
- (٢٣) العولمة والعولمة المضادة ٣٩٦ - مطابع لوتس الفجالة - القاهرة .
- (٢٤) السابق ٣٩٧ .
- (٢٥) انظر : لغتنا العربية والسياسة ، للدكتور عبد الحى عبد الحق ١٥ .
- (٢٦) انظر : اللغة والاقتصاد ، لفلوريان كولماس ١٤٥ .
- (٢٧) السابق ١٤٧ .
- (٢٨) انظر : السابق نفسه .
- (٢٩) انظر : السابق نفسه .
- (٣٠) انظر : السابق ١٤٥ .
- (٣١) انظر : أوربا فى مواجهة الإسلام ، للدكتور عبد العظيم المطعنى ٢٠٧ - مكتبة وهبة - ط١ - ١٩٩٣م .
- (٣٢) انظر : الفصحى لغة القرآن ، لأنور الجندى ١٠٦ الموسوعة الإسلامية العربية - دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٢م .
- (٣٣) انظر : أوربا فى مواجهة الإسلام ٢١٧ .
- (٣٤) انظر : الواقع اللغوى والهوية العربية ، للدكتور أحمد سمير ببيرس ١٤-دار الفكر العربى .
- (٣٥) انظر فى قضية التغريب : خاطرات مؤلفات فى اللغة والثقافة ، للدكتور محمد كمال بشر ١٤، دار غريب للطباعة والنشر ١٩٩٥م .
- (٣٦) انظر فى موضوع اللغة العالمية والاسبرانتو : اللغة بين القومية والعالمية ، للدكتور إبراهيم أنيس ٢٩٨-٣٢٦ ، و محاضرات فى علم اللغة الحديث ، للدكتور أحمد مختار عمر ٩٠-٩١ ، ط١، ١٩٩٥م .
- (٣٧) انظر : علم اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وفى ١٧٨ .

(٣٨) ثقافة العولمة إعداد مايك فيذرستون ، ترجمة عبد الوهاب علوب ٤٧ - المجلس الأعلى للثقافة - ٢٠٠٠ .

(٣٩) مقال التباين والاختلاف فى الاقتصاد الثقافى العالمى - المرجع السابق ٢٨٣ .

(٤٠) مقال الحلم بعالم علمانى معنى سياسات التنمية وحدودها - المرجع السابق ١٨٥ .

(٤١) العولمة والعولمة المضادة ٤٠٣ .

(٤٢) انظر : الاتصال والهيمنة الثقافية لهربرت شيلر ٢٠ ترجمة وجيه سمعان عبد المسيح

مراجعة د . مختار محمد التهامى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ م .

(٤٣) انظر : اللغة والاقتصاد لفلوريان كولماس ١٠٧ .

(٤٤) يرى خبراء الاقتصاد أن التعاون الاقتصادى العربى لم يصل بعد إلى تحقيق أهدافه .

بل لا يزال بعيدا عن تحقيق بعضها ، وأن دراسة أشكال التعاون الاقتصادى العربى المتعددة

على المستويين القومى والدولى كانت نتائجها غير مشجعة وغير مرضية فلم يود إلى تقارب

تدريجى بين الدول العربية ولا بين اقتصادياتها ولا هى سهلت التنمية . راجع فى ذلك :

الاقتصاد العربى والشرق أوسطية ، لعبد الهادى يموت ، معهد الإنماء العربى ، بيروت ط ١

١٩٩٧ م . والسوق العربية المشتركة ، للدكتور سليمان المنذرى ٢٥٩-٢٦٠ مكتبة

مدبولى - ط ١ - ١٩٩٩ م .

(٤٥) انظر عن مكانة العربية فى الإذاعات العالمية : اللغة العربية والفكر المستقبلى ،

للدكتور عبد العزيز شرف ١٦٨ .

(٤٦) اللغة بين القومية والعالمية ٢٨٠ .

(٤٧) انظر : اللغة بين القومية والعالمية للدكتور إبراهيم أنيس ٢٧٩ - ٢٨٠ ، والعولمة

والعولمة المضادة للدكتور عبد السلام المسدى ٣٨٩ .

(٤٨) نقلاً عن الفصحى لغة القرآن ، لأنور الجندى ٣٠٧ .

(٤٩) نقلاً عن عالمية الإسلام ، لأنور الجندى ٩٣ دار الاعتصام ١٩٨٧ م .

(٥٠) نقلاً عن إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز ، لبديع الزمان سعيد النورسى ٢٦٧

تحقيق إحسان قاسم الصالحى - مطبعة المدنى ط ٢ - ١٩٩٤ م .

(٥١) انظر : العولمة والعولمة المضادة ، للدكتور عبد السلام المسدى ٣٩٠ .